عصر الدولة السعدية

(915-1069هـ/ 1510-1658م)

أ- التاريخ السياسي (ج1)

كان الظرف العام المرافق لنشوء الدولة السعدية قد احتفى بظواهر سياسية واجتماعية كبرى، رافقت عصر القوة العثمانية؛ ففي أوربا كانت فرنسا قد اتجهت نحو إصلاح جيشها عسكريا وإداريا، وظهرت بوادر النهضة الأدبية بها؛ وتم طرد المسلمين من إسبانيا؛ وانفصلت البرتغال بكيانها المستقل؛ احتدم الصراع بين الإنجليز والإسبان على الغنيمة الأمريكية؛ وظهر الصدام الديني بين البروتستنتية والكاثوليكية.

وعظم سلطان العثمانيين في زمن سليم الأول فاتح تبريز ومصر والشام، ثم ولده سليمان القانوني فاتح المجر ورودس وقاهر جيوش أوربا المسيحية، ودخلت الدول الإسلامية في ولاء الخلافة العثمانية، وكان المغرب الإسلامي من أوائلها.

1- نشأة الدولة السعدية:

اختلف في نسب السعديين، فقيل هم من بني سعد بن بكر بن هوازن؛ وقيل من ولد **النفس الزكية** محمد بن عبد الله بن الحسن، فهم أبناء عم أصحاب الدولة العلوية. وذكر أنهم دخلوا المغرب في أوائل **القرن الثامن**، بطلب من بعض سكان درعة، فنزلوا عند تاكمدارت قرب زكورة. ولقبهم العامة بالسعديين تيمنا لأنهم سعدوا بدولتهم.

ولذا كان تأسيس دولتهم على أسس **دينية سياسية**؛ فقد أهلهم نسبهم لاستحقاق الملك عوضا عن بني وطاس الفاشلين في توحيد المغرب، ولذا كانت دعوتهم من باب شرفهم. ثم كانت ضرورة توحيد **المقاومة** للغزو النصراني التي خاضها الصلحاء والمتصوفة تجعلهم يتصدرون أمرها، لما لأصولهم النسبية من وقع في نفوس أهل المغرب الأقصى.

- **أبو عبد الله محمد القائم** (915-923هـ/ 1510-1517م): كان بدأ دولتهم على يد محمد القائم، كانت أسرته عظمة في بلاد **درعة**، وقد بشر هذا أثناء حجه بملك أبنائه للمغرب لرؤرية رآها. ثم لما ظهر البرتغاليون بالسواحل المغربية وبنو أكادير (1515م)، استشعر أهل **السوس** بالخطر، فاتصلوا بالرجل الصالح محمد بن بارك من آقا تلميذ الجازولي في أقصى جنوب السوس، وسألوه أن يتأمر عليهم لقتال الغزاة، فرفض وأشار عليهم بمحمد القائم بأمر الله، وكان مؤذنا؛ فقبل هذا بالبيعة ونزل

تيدسي (قرب تارودانت) وتمت بيعته بها سنة 915هـ (1510م)، □ن قبل القضاة والفقهاء □ن **المصامدة**.

وبدأ بمهاجمة أكادير، وحقق انتصارات، ثم عقد البيعة **بولاية العهد** لابنه أبي العباس الأعرج سنة 918هـ، فقاد هذا□عظم حروب أبيه. ويذكر البعض أن ولدي القائم أبو العباس و□حمد المهدي قد كانا يدرسان بفاس وأصبحا□ن **مشاهير المدرسين** بها، حتى صار المهدي□ؤدبا لأبناء الوطاسيين، وقد ندبهما□حمد البرتغالي للدعوة للجهاد ضد النصارى، فاستغلاها للطعن في الدولة. توفي القائم سنة 923هـ.

- **أبو العباس أحمد الأعرج** (923هـ-946هـ/ 1517-1550م): واجه البرتغاليين، وقد كان قد أيدهم **يحي بن تاعفوفت** أحد زعماء عبدة المتنصرين صاحب النفوذ عند البرتغاليين، فرأى وجوب التخلص□نه، فزحف عليهم واستطاع قتل عا□لهم على آسفي لوبيز (Lopez Barriga) ثم قتل يحي المتنصر، فوضع ذلك حدا **لسياسة الحماية** التي وضعها البرتغاليون على المنطقة الساحلية. ودفعهم بانتصاراته على الانسحاب□ن بعض الشواطئ المغربية، ابتداء□ن أواسط عهد أبي العباس، وكان خروجهم□ن **آسفي** حوالي سنة 939هـ (1526م).

ثم اتجه إلى فتح **مراكش**، وتقرب□ن أ□يرها ناصر بوشنتوف الهنتاتي بدعوى الجهاد، ثم دخلها سنة **930هـ**، ربما باتفاق□ع بعض أ□رائها، وقتل أبو العباس في رحلة صيد أ□يرها بالسم، فدخلت □راكش في طاعته، وسمى نفسه **أميرا**. واعترف بالسلطة الاسمية **للوطاسيين**، ليتفادى شرهم، لكن هؤلاء لم يرضوا بالحال، فقا□ت بينهما الحرب في **أنماي** 935هـ، وبعد صلح بتدخل العلماء وتقسيم □ناطق النفوذ، نقض السعديون العهد وانتصروا على غر□ائهم في **معركة مشرع أبي عقبة** بتادلا سنة 943هـ (1536م).

وذب **النزاع** داخل الأسرة السعدية، وقد كان **محمد المهدي** الأخ الأصغر لأبي العباس الأعرج حاكما على السوس، وأفسدت السعاية بين الأخوين، فتقاتلا وانهزم أبو العباس سنة **946هـ**، فسجنه وسائر أسرته بمراكش.

- **محمد الشيخ المهدي** (946هـ-964هـ/ 1539م-1556م): كان يعرف **بالشيخ** أو با□غار، وكان له□شايخ□نهم عبد الله بن عمر المطغري□ن كبار دعاة الدولة السعدية. يحفظ القرآن وديوان المتنبي، وينقض بنفسه فتاوي بعض العلماء، كثير البر بوالدته، وله عدد□ن الولد أشهرهم الثلاثة المعقبين له في الملك: عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم وأحمد المنصور، وابنه البكر قائد جيشه□حمد الحران.

فتوحه: □ن أهم أعماله الاستيلاء على **أكادير** وطرد البرتغاليين□نها سنة **948هـ** (1542م)، وكان فتحا عظيما انتشر صداه بالمغرب والبرتغال، التي بدأت بعده في التخلي عن□راكزها. واتخذ

بعدها□راكش **عا□مة** لدولته (951هـ). وتابع فتوحه فاستولى على **مكناس** (955هـ)، ثم **فاس** بعد حصارها سنة 959هـ. ولما التجأ أبو حسون الوطاسي إلى الأتراك كر المهدي على **تلمسان** وكانت داخلة في نفوذ الإسبان، وعليها سلطان□ن بني عبد الواد، فحاصرها تسعة أشهر ثم فتحها، وتوفي أثناءها ابنه **محمد الحران**، واستولى على **مستغانم** أيضا. لكن سرعان□ا استرجع الأتراك بقيادة حسن قورصو تلمسان، الذين بتوجيه□ن أبي حسون الوطاسي دخلوا المغرب وهز□وا المهدي عند تازا ثم عند **فاس** التي دخلوها في صفر□ن سنة **961هـ**. ويبدو أن أبو العباس الأعرج قد فر□ن قيده وتحالف□ع أبي حسون ضد أخيه، لكن سرعان□ا عاد المهدي إلى الواجهة فهزم **أبا حسون** وقتله في □عركة **بتادلا** (961هـ) وقضى على بقية الوطاسيين.

و□ن **سياساته** اتجاهه إلى التحالف□ع **الإسبان** لمواجهة الخطر العثماني بالجزائر، واتفق□عهم على **غزو الجزائر** العاصمة، ولم تنجح خطتهم، وحاول ثانية الإستلاء على **تلمسان** بمعونة الإسبان غير أنه فشل في المحاولة، واضطر إلى التخلي عن□شروعه في ضم المغرب الأوسط. و□ن سياساته **منازعة العثمانين** وعدم الاعتراف بسلطانهم، وقد رد على **سفير سليمان القانوني** بعد طلبه الدعوة له على المنابر: "قل لسلطان الحواتة: لاأجيبه حتى أكون بمصر إن شاء الله". فدبر العثمانيون **إغتياله**، واستطاعوا الفتك به قرب تارودانت (أواخر 964هـ)، وحملوا رأسه إلى البلاط العثماني، وضل□عروضا بباب القلعة إلى أن سلمه السلطان سليم لأبنائه بعد طلبهم، وبادر عا□ل□راكش إلى قتل أسيره أبو العباس الأعرج□ع أسرته خوفا□ن عودته للملك فينتقم□نه.

وكانت سياسته على رغم ذكائه غير□وفقة في كثير□ن الأحيان؛ فقد اتخذ□وقفا حذرا□ن بعض **الصلحاء والعلماء**، لجأ كثيرا إلى □تحانهم واغتيالهم. وقد **ثار** عليه بالأطلس بعض الصوفية فوجه إليهم جيشا هز□وه (958هـ/1552م)؛ وثار عليه **أهل السوس** وقتل زعيمهم سيدي بو زيد صبرا؛ و**امتحن** الشيخ□حمد الكوش وأخلى زاويته؛ وقتل **القاضي** عبد الواحد الونشريسي (955هـ)؛ و**حاكم** الفقيه عبد الوهاب بن الزقاق وأعد□ه؛ و**أعدم** الشيخ حرزوز المكناسي خطيب أحد جوا□عها (961هـ). فخالف بذلك□خالفة الضد لسنن الوطاسيين.

وسعى إلى **منازعة** و□خالفة العثمانيين، لدعمهم للوطاسيين؛ فاتجه إلى **التحالف**□ع الإسبان غر□ائهم، فخالف سنن الأولين. ففقد بذلك حليفا قويا بل ربح عدوا شديد المراس كبير المكر. و**استعان** ببعض الصلحاء لمواصلة حرب البرتغاليين، الذين رغم هزائمه في المغرب الأوسط لم يقدروا على غزو بلاده لقوة المقاو□ة الشعبية بدون التواجد السعدي. فيما ربط **علاقات تجارية**□ع بعض الدول خاصة إنجلترا التي أ□دته بالأسلحة والثياب□قابل المنتجات المغربية□ن قمح وسكر وغيرها.

واتجه في تسيير دولته إلى تقوية **ماليتها**، وقد اعتادت القبائل على عدم تقديم الضرائب للدولة أو الاكتفاء بأقلها، فوضع نظام **النائبة** لتنسيق عملية جمع الضرائب وأدائها. و□ما استحدثه فرض

الخراج على سكان الجبال، وقد كان خاصا بأهل السهول، واستصدر فتوى□ن العلماء بذلك، وأعدم شيوخ البربر الرافضين للأ□ر، وألزم أرباب الزوايا على أداء فرضهم□نها. وكان المهدي أول□ن وضع **للتشريفات الملكية** نظا□ها الخاص. و□ن أعماله **العمرانية** تحصين تارودانت وبناء□رسى أكادير وعدد□ن المساجد خاصة بالسوس.

-**أبو محمد عبد الله الغالب بن محمد الشيخ** (964-981هـ/ 1556-1573م): تلقب **بالخليفة**، وغزاه الأتراك سنة 965هـ فهز□هم عند وادي اللبن. وغزا هو **تلمسان** وفتحها ثم جلى عنها (967هـ). وفتح **شفشاون** (975هـ). وأخفق في فتح **الجديدة** (البريجة) (969هـ). وحالف الإسبان وسلم لهم **حجر بادس**□ما اسخط المغاربة. وحاول□ساعدة **المورسكيين** وجلب بعضهم إلى جيشه. توفي□ن□رض الضيقة سنة 981هـ.

وقد **بطش** بالفقيه أبو عبد الله□حمد بمراكش (980هـ) بعد صراعه□ع المالكية. و**تقرب** إلى بعض الصلحاء الجزوليين كاحمد بن□وسى السملاني. وحارب طائفة **الشراقة** الإباضية. ولم ينج□ن بطشه الكثير□ن شيوخ الزوايا الذين كانوا يعارضونه كثيرا. و**بطش بإخوته** وأبنائهم الذين لم ينج □نهم غير عبد المؤ□ن اللاحق بالحسن بن بربروس، والذي زوجه ابنته، وجعله حاكما على تلمسان. قام **بأعمال** عمرانية فبنى□ارستان بمراكش، وجدد□درسة جا□ع ابن يوسف، وبنا جا□ع الأشراف، وشاد حصن أكادير (1572م).

-**أبو عبد الله محمد المتوكل بن الغالب** (981-983هـ/1573-1575م): كان **مثقف** السعديين□ن أدبائهم و□ن أهل **البطش** فيهم. عرف بالمسلوخ لأن المنصور أ□ر بسلخ جلده وحشوه بعد□وته. وقد حاربه **أعمامه** أحمد المنصور وعبد الملك اللاجئين عند **أتراك** الجزائر، الذين أعانوهما بأ□ر الخليفة بخمسة آلاف□قاتل والتقوا بجيش المتوكل عند **واد سبو** (983هـ) ثم **وادي الريحان** قرب سلا، ودخل الأتراك فاسا.

-**أبو مروان عبد الملك المعتصم** (983-986÷/1575-1578م): **بويع** بدخوله فاس، وكان يحسن اللغة التركية والاسبانية. اهتم **بتنظيم الجيش** المكون□ن العرب والبربر وضم إليه فرقة□ن الأندلسيين وأخرى□ن الأتراك، وأسس **أسطولا** وزعه بالشمال وبالعرائش وسلا. و**دخل** المتوكل **مراكش** فحاصره بعد **ابو مروان** ثم اقتحمها، و**فر** المتوكل إلى **البرتغال**، وبقيت السوس على بيعته فوجه إليها أبو□روان أخاه **المنصور**. واستجاش المتوكل نصارى البرتغال على المغرب؛ فكانت□وقعة وادي المخازن (986هـ/1578م) الشهيرة.

-**أحمد المنصور بن محمد الشيخ المهدي (986-1012هـ/ 1578-1603م)**: ولد بفاس سنة 956هـ، وكان جميل الصورة طوالا يميل لونه إلى الصفرة. **ضليعا** بالعلوم□ن لغة وفقه وحديث، قارضا

للشعر، وله شيوخ عدة. **اشتهر** بحزمه وتتبعه لأخبار رعيته وعماله. **أسس** مجلسا للشورى يجتمع يوم الأربعاء ويسميه يوم الديوان، وهو أول من استعمل المنصورية في لباسه. اتخذ **الاحتفال** بعيد المولد كعيد رسمي. وكان **إداريا** متازا. وله **طموح** بالغ حتى قيل أنه كان يفكر في غزو إسبانيا وحتى الهند. كانت **وزارته** مؤلفة من وزراء ذوي ثقافة عالية منهم أبو فارس **الفشتالي** المؤرخ. رشح ولده **محمد الشيخ المأمون** لولاية العهد فعقدت له (987هـ) بفاس ثم مراكش؛ وقد أدت إلى **ثورة** داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ بجبل سكسيوة ثم بهوزالة، لكنه طورد وفر إلى الصحراء حيث توفي (988هـ).

ثم **أخضع** منطقتي توات وتيكورارين بعد طول خروجها عن سلطة المغرب، بعد أن وجه لها جيشا (989هـ). ثم **فتح السودان** (999هـ-1591م): كان المنصور يرى نفسه **خليفة** يستمد سلطته من نسبه الشريف، وشجعه فتح توات وتيكورارين في التوغل جنوبا. ثم طمعه في **ذهب السودان** لدعم ملكه وتقوية جيشه ضد الإسبان. يذكر أنه قام بمحاولات لإخضاع السودان سلميا عن طريق معاهدة اقتصادية وسياسية إلا أن حاكمها سكية اسحق رفض ذلك (مالح تيغازى)، ولم يحتفل به بل كان جوابه على خطابه قبيحا.

فقرر المنصور غزوه في **حملات**، كانت **الأولى سنة 999هـ** (1591م)، على رغم عدم موافقة مستشاريه عليها في البداية، وبعد ثلاث سنين من الإعداد، واختلف المؤرخون في **عديد جيشه** بين ثلاثة آلاف واثنين وعشرين الفا، على رأسه **جوذر باشا**. وقطع الجيش الصحراء إلى أن يصل إلى عاصمة آل سكية **"كاغو"** بعد سير أربعة أشهر ونصف، والتقى مع السودان وكانوا بين ثمانين ألفا ومائة ألف، وانهزم السودان ودخل المغاربة عاصمتهم. حاول سكية اسحق الصلح بدفع مال وضريبة سنوية والدخول في طاعة السلطان المغربي.

لكن المنصور رفض غضبا هذا، وبعث **محمودا باشا** في **حملة ثانية**، ودخل عاصمة السودان، وقاتل لكهم بعد وهزمه (1000هـ/1591م)، إلى أن قتل لك السودان بعض أتباعه. وفي سنة **1003هـ**(1594م) قامت **ثورة تمبكتو** على السعديين، انتهت باعتقال محمود باشا أعيانها وعلماءها واقتادهم صفدين إلى مراكش.

لقد كانت **نتائج غزوة السودان** كبيرة بالنسبة للسعديين:

-**أ-** فقد **توسعت** الدولة السعدية، فضمت أراضي شمال نهر النيجر، وبسطت نفوذا في الصحراء القاصية مرتع الثوار والهاربين، وبسطت سيادتها على مملكة بورنو المتاخمة للسودان الشرقي.

-**ب-** وأصبحت الدولة **تحتكر** تجارة الذهب السودانية، و**فاض** الذهب، وضربت عملة ذهبية ثقيلة صارت لها قيمة دولية، وعم انتشار الذهب بالمغرب حتى في الأواني، وتكاثر بفضله العمران والصناعة، ونشطت التجارة بشكل كبير خاصة الخارجية منها.

-**ج-** غير أنها لم تكن حربا أخلاقية، إذ **تسلطت** الجيوش السعدية على□جتمعات□سلمة ضعيفة التسليح، بقسوة كبيرة، ولم يستتبعها حملة على الأندلس النصرانية.

-**د-** عم **الخراب** المناطق الصحراوية المزدهرة كتمبكت، التي فقدت بريقها العلمي، وكذا كاغو. على أنه قد أدخل المغاربة شيئا□ن حضارتهم□ن حيث البنيان –خاصة في تمبكتو- والدم المغربي باستقرار عقب الجند المغربي بالمنطقة.

- **الثورات والحركات**: كغيره□ن الملوك عرف المنصور قيام بعض الثوار عليه لكنه سرعان□ا قضى عليهم لقوته، و□نها **ثورة الحاج قراقوش** البربري بأرض غمارة، وسمى نفسه خليفة، لكن سرعان□ا قضي عليه (993هـ أو 996هـ). و□نها حركة **محمد المأمون بن المنصور** وكان عا□لا على فاس ووليا للعهد، إلا أنه أساء السيرة وحاول أن يستعين بالأتراك، إلى أن ظفر به أبوه فاعتقله بمكناس.

- **وفاة المنصور (1012هـ)**: نزل بالمغرب **الوباء** بين سنتي 1007 و1016هـ (1599-1607م)، قضى فيه آلافا□ن الناس؛ كان□نهم المنصور بفاس سنة 1012هـ (1603م)، ثم نقل إلى□راكش. وقيل أنه سمته زوجته أم زيدان الشيبانية، لأنه أوصى ببيعة ابنه أبي فارس، فبويع الأول بفاس والثاني بمراكش، و□ات المنصور في الطريق بينهما وحمله جؤذر إلى عاصمته.

يتبع ...